منهج شوقى ضيف
فى «البلاغة تطور وتاريخ»

د. منير سلطان

شوقى ضيف تاريخ ومنهج:

لا يختلف معى كثيرون، إذا قلت إن كتاب «البلاغة تطور وتاريخ» مَعْلَمٌ من معالم البحث البلاغى فى عصرنا الحديث، وأنه لا بديل للباحث من الوقوف عنده متعلمًا ثم مؤيدًا أو مناقشًا.

فالدكتور شوقى ضيف، تاريخ ومنهج، تاريخ يرتبط بنشأة الجامعة المصرية، وبظهور الجيل التالى لجيل الأعلام المؤسسين، عربًا ومستشرقين، ومنهج يقوم على شمول النظرة، وعمق التجربة والالتحام بالموروث مع سدادٍ فى الرأى[1].

وحين يتصدى لِبَحْثٍ فى البلاغة، كما فعل فى غيرها من علوم العربية، فإنه يقول ما له اعتباره، ويقوم بما لم يسبق إليه، فى الشكل والمضمون، ومن ثم يأخذ كتابه مكانته اللائقة به فى الفكر العربى، والفكر الغربى المهتم بشئوننا العربية.

وقد حدد الدكتور شوقى ضيف غايته من الكتاب قائلًا «لم تكن غايتى أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضا أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا فى تطورهما، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل، وأن أرسم فى تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغى وسابقه ولاحقه، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتضاحًا تامًّا» (ص ٦).

فهو ينظر إلى البلاغة من خلال الأدب، ويمزج بينها وبين رجالها، ويلملم شذراتها، ثم يتتبعها فى حال نموها، وحال تحولها إلى كيان مستقل، أو اشتراكها فى اتجاهٍ ما، أو بروزها فى منهجٍ مًّا، حتى يصل البحث إلى مشارف الركود، وأستار الضباب، عندما انتكست البلاغة، وتجمدت أطرافها، وباتت تنتظر الدفء مع مطلع الفجر الجديد.

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٦٥، عن «دار المعارف» بالقاهرة.

ولا يدع الدكتور شوقى ضيف عرضه الشامل - هذا - يمر دون أن يعقب عليه، فالخطة التى انتهجها، قد أتاحت له أن يطرح البلاغة على مائدة البحث بجميع أطرافها يتأملها فى حال شبابها وجمالها، وحال كهولتها وذبولها، ثم يقترح العلاج، ليعود الرُّواء.

بذا يقف هذا الكتاب علمًا سامقًا فى ساحة البحث البلاغى، مختلفًا عما كتبه د. أحمد ضيف، والشيخ أحمد مصطفى المراغى، و د. سيد نوفل، وغيرهم، لأنه يسد فراغًا لم تنجح هذه الدراسات وغيرها فى أن تملأه.

أولا: الترابط الوثيق بين تطور البلاغة وتطور الأدب:

البلاغة هى معيار الذوق الأدبى لأمة من الأمم فى عصر من العصور، ونمو الذوق ينمى الأدب، ونمو الأدب ينمى الذوق، لا انفصام بينهما.

وما كانت تلك الشذرات الأولى التى تعقَّبها الدكتور شوقى ضيف لنشأة البلاغة سوى محاولة للارتفاع بمستوى الأداء الفنى فى الشعر، حتى لا يتخلف عن المستوى الرفيع الذى بلغه العرب فى الجاهلية، (ص ٩)، «ومن أكبر الدلالة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم، وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن فى بلاغته الباهرة (ص ٩).

وليس غريبًا أن تنبت الشذرات البلاغية الأولى فى بيئة الشعراء الذين «كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعانى والصور، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات والجناسات مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام، والتفنن فى معارضه البليغة» (ص ١٣).

ولم يكن القرآن الكريم شاهدًا فحسب على اهتمامهم برقى ذوقهم البلاغى، بل كان منسقًا لهذه الجهود، ومطورًا لها، ومحددًا المثل الأعلى الذى به يحتذى، فكان كتاب هداية، وفن، تؤازره فصاحةُ الرسول الكريم، وبلاغة سنته المشرَّفة.

ولم يستأثر الشعر بنمو البلاغة مثلما كان قبل الإسلام، وإنما أضيفت إليه الخطابة لشدة الحاجة إليها بعد ظهور الإسلام. «وكان أبو بكر وعثمان خطيبين مفوَّهَيْن، وكانا يستضيئان فى خطاباتهما بخطابة الرسول الكريم، وآى الذكر الحكيم» (ص ١٤).

وفى عصر بنى أمية ازدهرت الخطابة السياسية والحَفْلية والوعظية، «والحق أن الملاحظات البيانية كثرت فى هذا العصر، وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة فقد تحضر العرب واستقروا فى المدن والأمصار، ورقيت حياتهم العقلية، وأخذوا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقيدية.. فكان طبيعيًّا أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن

البيان، لا فى مجال الخطابة فحسب بل أيضا فى مجال الشعر والشعراء، بل لعل المجال الثانى كان أكثر نشاطًا لتعلق الشعراء بالمديح، وتنافسهم فيه» (ص١٦).

وهكذا لم يكن ازدهار الخطابة والشعر فى حقيقة الأمر سوى ازدهار للأدوات البلاغية التى كانت وسيلة لإيثار الإعجاب والإمتاع والإقناع.

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسى الأول حتى تتسع الملاحظات البلاغية، وقد أعدت لذلك أسباب مختلفة، منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر، ومرده إلى أن كثيرين من الفرس والموالى أتقنوا العربية، واتخذوها لسانهم فى التعبير عن عقولهم ومشاعرهم، وأظهروا فى ذلك براعة منقطعة النظير بالإضافة إلى كتاب الدواوين، وكان ذوقهم مترفًا بعامل ما انغمسوا فيه من الحضارة، وعاشوا يصفُّون كلامهم، ويتخيرونه مما يجمع الجزالة والرصانة مع السلامة والنصاعة، والرونق والطلاوة.

ومنها ما يعود إلى تطور الحياة العقلية والحضارية القائمة على الترجمة.

فى خضم هذه النهضة تحولت البلاغة من شذرات متفرقات فى كتب اللغة والنحو والأدب والتفسير والأصول إلى راسة منهجية منظمة، أبرزها.

١ - دراسة «إعجاز القرآن».

٢ - ما تركته الخصومة بين المحافظين والمجددين فى البلاغة من دراسات.

٣ - الدراسات النقدية البلاغية.

٤ - الدراسات الأدبية البلاغية.

أما عن قضية «إعجاز القرآن، فللبلاغة النصيب الأوفى، لأن البحث عن سر مفارقة أسلوب القرآن لما تعود عليه العرب من أساليب، هو الذى لفت العلماء إلى ما فيه من خصائص فنية، فسعوا جاهدين لتحديدها.

ونستطيع أن نجعل جهود البلاغيين والنحاة فى «مجاز القرآن»، وكتب «معانى القرآن» توطئة للدراسات المنهجية المنظمة، التى نهض بها المتكلمون الذين انطلقوا فى طريقهم منفردين، بعد أن أخذ اللغويون يتوسعون بعد القرن الثالث فى مباحثهم اللغوية الخالصة منحازين عن مباحث البلاغة، وكأنهم رَأَوْا - مُحِقِّين - أنها ميدان غير ميدانهم. (ص٦٣).

وتظل كتابات الجاحظ - شيخ البلاغيين - مَعِينًا لا ينفد لمد الأجيال التالية بكثير من فنون البلاغة، ونرى صداها يتردد فيما كتب المعتزلة، كالرُّمانى والجُبَّائِيَيْن أبى هاشم وأبى على، وعبد الجبار الأسد آبادى، والشريف الرَّضِىّ والشريف المرتَضَى، وابن سِنَان الخفاجى حتى الزمخشرى، وما كتب الأشاعرة كالباقلانى إلى الجُرجانى، كل يستمد منها حسب قدرته ومهارته الذهنية» (ص٥٧).

ولم تكن الخصومة بين المحافظين والمجددين سوى استجابة لنداء التطور، فالانتقال من دائرة الموروث العربى الخالص فى البلاغة - ويحافظ عليه اللغويون - إلى محاولة تنظيم البلاغة العربية، حَسَب قواعد يونان - ويدعو له المجددون - قد أثرى الدرس البلاغى، فهذا ابن قتيبة، والمبرد، وثعلب، يشاركون فى الملاحظات البلاغية فى ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر وآى الذكر الحكيم، ويكشفون بذلك جمال الأساليب العربية، وتعدد طرقها فى الأداء، بينما يذهب قدامة، وإسحق بن سلمان بن وهب، وابن رشد، والفارابى، إلى جعل البلاغة اليونانية مَثَلاً أعلى للبلاغة العربية، كما يَرَوْن أن الشعراء المجددين وأصحاب البديع هم أبناء الحضارة العربية الجديدة، لذا سبقوا إلى هذا الفن - وكان كتاب «البديع» لابن المعتز ناصرًا للمحافظين، أمام هذه الأفكار المتطرفة، وذلك حين يعلن أعلانا لا مواربة فيه «أن المُحْدَثين من الشعراء، لم يخترعوا البديع الذى يلهجون به، وأن البديع قديم فى العربية، بل أنه ليتعمق فى القِدَم حتى العصر الجاهلى، وأن ما للمحدثين منه من أمثال بشار، إنما هو الإكثار من استخدام فنونه فحسب» (ص ٦٧، ٦٨).

وكان المتكلمون يخوضون هذه المعركة ولكن، معتدلين، لا يسرفون فى المحافظة غافلين عن سنة التطور. (ص ٦٦).

وتأتى الدراسات النقدية والبلاغية، وهى تعتبر معالجة أخرى لمشكلة المحافظين والمجددين، ولكن من خلال مقاييس النقد وقضاياه، لأنها دارت حول مذهبين واضحين فى الشعر، أحدهما مذهب أبى تمام الذى كان يعنى - بتأثير ما ثَقِفَ من الفلسفة وغيرها من ضروب الثقافة - بالتعمق فى معانيه - كما كان يُعْنى بمحسنات البديع حتى لَيُسْرِفُ فيها إسرافا، ومذهب البحترى الذى لم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا بثقافة، وهو مع ذلك كان يستخدم محسنات البديع بدون إسراف.

وطبيعى أن يصبح عماد النقد النظر فى هذين المذهبين المتقابلين، وكانا يقومان فى أكثر جوانبهما على مدى ما يُسْمح للشاعر به من استخدام فنون البديع، وهل يَأْتى بها فى قصد، أو يتجاوزُ القَصْدَ والاعتدال إلى الإسراف والمبالغة المقيتة، وأيضا كانا يقومان على مدى التدقيق فى المعانى والغوص على خبيئها.

وأبرز هذه الكتب كتاب «عِيَار الشعر» لابن طباطبا، و «الموازنة» للآمدى، و«الوساطة» للجرجانى.

وتتميز الدراسات الأدبية البلاغية أنها خرجت إلى الميل إلى التجديد دون التقليد، بالنسبة لشعراء بأعينهم، واستعرضت مختلف الاتجاهات شعرًا ونثرًا، تحاول تطبيق المفاهيم البلاغية، وذلك من خلال الشواهد العديدة على مدى العصور الأدبية إلى وقتها التى أُلِّفَت فيه، وفى كثير

من الأحوال تتوقف عند التحليل الفنى الذى ينبىء عن دقة فى الحس، وصفاء فى الذوق، وأبرزها كتاب الصناعتين «لأبى هلال العسكرى و «العمدة» لابن رشيق القيروانى، و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى.

ثم يأتى عبد القاهر الجرجانى، المتكلم الأشعرى، ويُعْتَبر أقصى قمة وصلت إليها البلاغة، وذلك بكتابيه «الدلائل» و «الأسرار»، فقد وضع قوانين البيان لأول مرة فى العربية وضعًا دقيقًا، كما وضع أيضا قوانين المعانى لأول مرة، وإذا كان قد شُغل فى الدلائل ببيان خواص الصيغ الذاتية، فقد كان همه فى «الأسرار» أن يكشف عن دقائق الصور البيانية متخللًا» لها بنظرات نفسية وذوقية جمالية رائعة (ص ٢١٨).

ولولا أن قيض الله تعالى للبلاغة العلامة الزمخشرى المتكلم المعتزلى، الذى طَبَّق فكرة النظم التى تنادى بها الجرجانى على القرآن الكريم، لولا هذا، لظلت أفكار الجرجانى حبيسة كتابَيْه، ولانتظرنا طويلًا مَنْ يُوَفَّق إلى القيام بهذا العمل الجليل، ولضاعت علينا نهضة بلاغية جُلَّى.

إن أعظم ما قام به الزمخشرى أنه حول الجَهْد الجرجانى فى البلاغة العربية إلى واقع ملموس، موصول الأثر، مضمون الشيوع، معروف القيمة، لأنه ربطه بالتطبيق العملى على النظم القرآنى فى كتابه «الكشاف» مضيفًا إلى تطبيقاته ما اكتشفته قريحته وثقافته وذوقه المدرب.

وظهور الزمخشرى كان يَعْنِى أن البلاغة ما زالت بحاجة إلى كثير من الأيدى المدربة التى توسع دائرة التطبيق، فتخرج من النظم القرآنى إلى نظم الحديث الشريف، إلى الشعر إلى النثر بمختلف فنونها، وكان يعنى أيضا أن المنهج بحاجة إلى التهذيب فيجنح إلى النظرة الشاملة، والاستقراء التام، والإحاطة الواعية، وبذا ينجو منهج الجرجانى من الجمود، ولكن من أسف، تلقف المتكلمون هذه الثمرة الطيبة فاستلُّوا منها روحها وجردوها من بهائها، وأبْقَوْا لنا العِظَام.

ذلك لأن الميراث جاء إليهم من مدرسة المتكلمين، فلم يلفت نظرهم فيه إلَّا ما يمكن أن يُقَعَّد وينظم، ولأن الحضارة قد تدهورت، فلم يجدوا فى أنفسهم، ولا فيمن حولهم من صار يستسيغ التأمل والتذوق الفنى ويصبر عليهما.

وقد ظهر فخر الدين الرازى المتكلم الأشعرى ليكتب «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» وهو تنظيم وتبويب لما كتب عبد القاهر فى صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية، وتنحصر فروعها وأقسامها حصرًا دقيقًا. ثم يظهر السكاكى الذى «مضى يَعُبُّ من جداول الفلسفة، والمنطق، والاعتزال، والفقه، وأصوله، وعلوم اللغة والبلاغة» (ص ٢٨٧) ويكتب كتاب «المفتاح» وفى قسمه الثالث، قسم البلاغة إلى عِلْمَيْن كبيرين، أحدهما «علم المعانى» والآخر «علم البيان»، «واستطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها

من آراء، وصاغ ذلك كله بغة مضبوطة محكمة، استعان فيها بقدرته المنطقية فى التعليل والتقسيم والتفريع، وكان عمدته فى النهوض بذلك تلخِيصَ الفخر الرازى وكتابَىْ الجرجانى، وكشاف الزمخشرى الذى استوعبه استيعابًا».

وتستمر الكتابات البلاغية فى الانحدار، فيظهر الزملكانى، وبدر الدين بن جمال الدين بن مالك، الذى أطلق على المحسنات مصطلح «البديع» لتكمل الجناية على البلاغة بتقسيمها إلى علومها الثلاثة «المعانى» و «البيان» و «البديع»، ثم يأتى التنوخى الذى يخرج عن صف السكاكى، ويسمى مباحث البلاغة باسم «علم البيان» ثم ابن قيم الجوزية، و=حيى بن حمزة العلوى، ثم يأتى ابن الأثير، «وواضح أنه لم يكن مثقفًا ثقافة دقيقة بكتابات البلاغيين قبله... وفاته أن يطلع على كتابات عبد القاهر، والزمخشرى، والرازى، على أنه يَذْكُر الزمخشرى أحيانًا، ولكن ليرد عليه بعض آرائه، ومن المؤكد أنه لم يُحِطْ بما كتبه فى «الكشاف»، وظل يضطرب اضطرابًا شديدًا فى تصور المسائل البيانية الخالصة...، وكتابه بصفة عامة محاولة لتنظيم ما كتبه ابن سنان الخفاجى فى كتابه «سر الفصاحة» مع بعض التفريعات والنظرات الجديدة، ومع العناية بفن الرسائل...» (ص ٣٣٤).

ويتوالى انحدار التأليف من سفح إلى سفح، فيظهر القزوينى ليلخص القسم الثالث من كتاب المفتاح «للسكاكى، تلخيصًا دقيقًا واضحًا، ثم يعقبه بشرح له يسميه «الإيضاح» الذى يتلقى بحسن التلقى والقبول، ويقبل عليه معشر الأفاضل والفحول ويكب على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول، فصار كأصله محط رحال تحريرات الرجال ومهبط الأنوار الأفكار، ومزدحم آراء البال، فكتبوا له شروحا» كما يقول صاحب كشف الظنون» (ص ٣٥١)، وتنهمر الشروح، لتمعن فى سد الطريق أمام العيون والبصائر، ولتضيّع ما كتبه الجرجانى والزمخشرى، وكل صاحب ذوق وفن وثقافة فى ساحة البلاغة العربية، وهذه المباحث كما يقول الدكتور شوقى ضيف بحق، «ظلت تتسلق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقًا، وحتى أصبحنا لا نجد إلاّ كلامًا معادًا مكررًا لا ينمى ذوقًا ولا يربى ملكة» (ص ٢٥٨).

ثم تكمل دائرة العقم بالبديعيات التى «كانت تأخذ شكل مختصرات مجملة إلى درجة تشبه أن تكون رموزًا، ولذلك كان ناظمها يعمد توًّا إلى شرحها» (ص ٣٦٦).

إلى أن أشرق الفجر الجديد، وكانت مهمته ثقيلة، كان عليه أن يُخَلِّىَ البلاغة من الشوائب والأصداف، وأن يحلى البلاغة بالذوق القائم على الفهم والثقافة والتطور.

ثانيا: تواصل الدرس البلاغى حتى عصور الجمود:

الدكتور شوقى ضيف يحرص فى عرضه التاريخى على إبراز سبب آخر للتطور البلاغى غير

مواكبتها لتطور الأدب، وهو: تواصل الدرس البلاغى بين العلماء، فاللاحق يروى عن السابق، ويتدبر ما وصل إليه ثم يضيف.

فَنُصَيْب الشاعر يأخذ على الكميت قوله:

أم هـل ظعائن بـالعلياء نـافعـة وإن تكـامـل فيهـا الأنس والشنب

يقول: باعَدْتَ فى القول، ما الأُنس من الشَنَب؟ ويلاحظ الدكتور شوقى ضيف» أن نُصَيْبًا يطلب إلى الكميت أن يقرن كلماته إلى لِفْقها، ويصلها بمشكلاتها، وهو ما سمى عند البلاغيين فيما بعد باسم «مراعاة النظير» (ص١٨)، وأن قدامة بن جعفر قد التفت فى كتابه «نقد الشعر» إلى فكرة أن المديح ينبغى أن يكون بالفضائل النفسية، لا بأوصاف الجسم، وما يتصل بها من الحسن والبهاء والزينة، من نقد عبد الملك لابن قيس الرقيات بأنه أعطاه من المدح» ما فَخْر فيه، وهو اعتدال التاج فوق الجبين الذى هو كالذهب فى النضارة» (ص١٨)، وابن المعتز يأخذ فكرة رد الأعجاز إلى الصدور من ابن المقفع، (ص٢١)، والكتاب لسيبويه كان مَعِينًا للبلاغيين من بعد فيما يخص خصائص الأسلوب (ص٢٩)، والأصمعى أول من أفاض فى الحديث عن «المطابقة» بمعناها الاصطلاحى، وربما كان أول من اقترح اسمها، وكذا مصطلح «الالتفات» ومصطلح «الإفراط فى الصفة» وبكل هذا أخذ ابن المعتز (ص٣٠ - ص٣٢)، الذى أخذ مصطلح «المذهب الكلامى» من الجاحظ، (ص٦٨)، وابن المعتز أيضا الذى فتح الباب للبلاغيين من بعد أن يُكْثِرُوا من فنون البديع حتى بلغت الخمسين بعد المائة، (ص٦٩)، والفارسى الذى ذكر عنه الجاحظ تعريفه للبلاغة، بأنها معرفة مقاطع الكلام وتمييز فِقَره، وعباراته بعضها من بعض، أدى بالبلاغيين إلى جعل «الفصل والوصل» فصلًا خاصًا فى علم المعانى، (ص٣٦)، والجاحظ فتح الباب على مصراعيه ليهتم أصحاب البحث البلاغى بمسألة السرقات (ص٥٧)، وأثر أبى عبيدة والجاحظ فى ابن قيتبه لا ينكر (ص٥٩)، وابن قتيبة هو الذى قدم للبلاغيين من بعد مثال «ومكروا ومكر الله» فسموه باسم «المشاكلة»، (ص٥٩)، المبرد صاحب ما سمى من بعده باسم «أضرب الخبر» (ص٦١) وابن فارس يقدم فصل «معانى الكلام»، وأغلب الظن أن هذا الفصل الطريف» كان مما أوحى لعبد القاهر جانبًا من أفكاره فى كتابه «دلائل الإعجاز» التى تقوم على أن للكلام معانِىَ إضافية غير معانيه الحقيقية، وتأتى من صورة صيغته، وطبيعة تركيبها (ص٦٣)، وقدامة بن جعفر يتأثر بثقافة اليونان، (ص٩٥)، كما كان المعتزلة يسمعون من السريان، (ص٣٩).

والخط متصل بين الجاحظ وبين الرُّمانى والباقلانى وابن سنان الخفاجى، وغيرهم ومتصل أيضا بين القاضى عبد الجبار المعتزلى، والجرجانى الأشعرى، الذى أخذ عن على بن

عبد العزيز الجرجانى صاحب «الوساطة»، والزمخشرى المعتزلى يطبق فكرة النظم عند الجرجانى.

وهكذا لا تُخْطِئُ مصدرًا للفكرة، ولا تتعب فى تتبع جريانها، فالنوافذ مفتوحة والتواصل مستمر بين العلماء بغض النظر عن مذهب أو اتجاه فالعلم مشاع، والتعلم مفروض، والاقتداء مشروع، والإضافة واجبة.

كان لكل عالم إضافة أو إضافات: فما أن نذكر سيبويه، حتى نتذكر الركائز التى قدمها إلى علم المعانى، ونذكر «الفراء» فنراه صاحب فكرة «المشاكلة للإيقاع الموسيقى بين الفواصل» والأصمعى يضع مصطلح «الطباق» و«الالتفات» و«الإفراط فى الصفة»، وابن المقفع صاحب مدرسة «الإيجاز الدقيق ذى المعنى الواضح العميق»، والجاحظ هو صاحب «البيان»، والمبرد صاحب «أضرب الخبر» فى علم المعانى، وابن المعتز إضاءة بارزة فى «البديع» بمعنى «البلاغة»، وفى رَدِّه الهجوم على الأصالة العربية فى البلاغة، وتحجيم الوافد اليونانى، والرمانى الذى صور «الإيجاز» تصويرًا نهائيًّا، بحيث لم يُضِفْ إليه البلاغيون التالون شيئًا (ص١٠٤) والباقلانى «أول من هاجم فى قوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجوه البديع، ومن هنا تأتى أهميته، إذْ أعد للبحث عن أسرار فى نظم القرآن من شأنها حين توضَّحُ توضيحًا دقيقًا أن توقف الناس على إعجازه» (ص١١٤)، وهو الذى حلل بعض قصار الصور تحليلاً شاملاً، لم يتوقف فيه عند آية آية، ولو استمر هذا النهج لتحرر العلماء من النظرات الجزئية، التى عالجوا بها بلاغة النظم القرآنى، و«عبدالجبار الأسد آبى» صاحب فكرة «النظم»، فالكلمة عنده «لاتُعَدُّ فصيحة فى نفسها، إذ لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها، لابد من ملاحظة أبْدَالِها ونظائرها، ولابد من ملاحظة حركاتها فى الإعراب، ولابد من ملاحظة موقعها فى التقديم والتأخير» وبذلك يقترب اقترابًا شديدًا من عبدالقاهر فى تفسيره للنظم، (ص١١٧)، و«ابن طباطبا» صاحب الحديث المستفيض عن «خطوات إبداع العمل الفنى»، وعن الترابط بين أجزاء العمل بحيث يؤدى أوله إلى وَسْطه إلى آخره، لا يَبِدُّ عنه شىء، (ص١٢٧) و«الآمدى» وقف أمام تيار قامة المتفلسف، و«على بن عبدالعزيز الجرجانى» له نظرات فاحصة فى أثناء حديثه عن المتنبى، من ذلك حديثه عن «الغلو والمبالغة»، وأبو هلال العسكرى» يُعْنى فى كتابه باستقصاء صور البيان والبديع التى سجلها النقاد وأصحاب البلاغة. فى عصره، كما يُعْنى بتحليل الأطراف منها تحليلاً يدل على رهافة حسه وصفاء ذوقه ونقائه. و«ابن سنان الخفاجى» يفرد حديثًا عن عيوب الكلمة، وعن أصواتها وحروفها، يظل معينًا ثابتًا للبلاغيين من بعده يتداولونه مفصلاً ويتداولونه مختصرًا.. و«الجرجانى عبدالقاهر» هو واضع البلاغة شكلها الفنى الأخير، والزمخشرى مطبق فكرة النظم على القرآن الكريم.. أما الباقون التالون فقد أطفأوا السراج الوهاج، ثم تخبطوا فى الظلام.

ثالثا: منهجان ينقطعان وآخر يتصل:

أما المنهجان، فأحدهما المنهج الأدبى وما كان له أن ينقطع، والآخر منهج المتفلسفة، وما كان له أن يتصل، والثالث: منهج المتكلمين، الذى اتصل من «واصل بن عطاء» إلى «الفخر الرازى» و «السكاكى» و «القزوينى» وغيرهم، وكانت بدايته مخصبة، لأنه جمع إلى الفن دراية بأصول علم الكلام، وفى عصور الجمود افتقد الفن، وبقيت الدراية بأصول علم الكلام، فتحولت البلاغة إلى قضايا منطقية، وسباق إلى تجفيف الجاف، وتمزيق الممزَّق.

المنهج الأدبى، الذى ما كان له أن ينقطع:

وبداياته كانت فى مدرسة علماء العربية من لغويين ونُحَاة فى ملاحظاتهم البلاغية المتناثرة، إلى كتبهم فى «مجاز القرآن» و «معانى القرآن» و «إعراب القرآن» إلى مناقشاتهم أخطاء الشعراء فى الصياغة، ثم تأتى موسوعة «البيان والتبيين» للجاحظ، و «البديع» لابن المعتز، و «عيار الشعر» لابن طباطبا، و «الموازنة» للآمدى، و «الوساطة» للجرجانى، و «الصناعتين» للعسكرى، و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى، و «المثل السائر» لابن الأثير...، ويتميز هذا المنهج بغلبة الروح الفنية، والنزعة العربية، والاحتفاء بالموروث فى شكل نماذج بليغة، والبعد عن زحام المصطلحات، والميل إلى التحليل، مع بروز شخصية المؤلف بثقافاته وذوقه، وقد نال هذا المنهج ما نال الأدب من نهضة نهض معها، ونكسة انتكس بها ولو استمر لتغير وجه البلاغة، ولاختفى من سمائها أعلامٌ أتت بهم مرحلة الجمود، وعَمَّقُوا هم هذا الجمود.

المنهج المتفلسف الذى انقطع:

وهو وليد الترجمات التى زحفت على الثقافة العربية، ومثلها قدامة بن جعفر بكتابه «نقد الشعر» وإسحق بن وهب بكتابه «البرهان فى وجوه البيان». ولم يكتب لهذا المنهج ذيوع، لأنه كان يريد صِبْغَةَ الذوق العربى بقواعد اليونان، بينما كان الذوق العربى فى أوج فتوته وتدفق قوته، فلم يجد من يتحمس له إلاّ بعد قرون، على يد حازم القرطاجى وتلميذه السجلماسى فى المغرب العربى، واندثار المنهج لا يعنى عدم الإفادة من ملاحظاته السديدة.

المنهج الكلامى: وزعيمه شيخ البلاغيين المعتزلى صاحب البيان والتبيين «وقد انطلق هذا المنهج يُثرى البلاغة من خلال دفاعه عن «إعجاز القرآن» من بعد الجاحظ على يد الرمانى المعتزلى، والجبائيين أبى هاشم وأبى على، والقاضى عبد الجبار، وهم المعتزلة، والباقلانى

والجرجانى الأشعريين، والزمخشرى المعتزلى، وغيرهم من بعدهم، الذين يمثلون المنهج حين جفت ينابيع الفن فيه، وتحول إلى فلسف ومنطق وكلام ونحو.

ومن أسف أن عصور النهضة الحديثة بدأت وبين أيدى علمائنا «شروح التلخيص»، وكأنهم يصرون على استمرار المنهج الكلامى فى مرحلته العقيمة، حتى جاء الشيخ «محمد عبده» العظيم، وأخرج كتابَىْ الجرجانى إلى النور ودرَّسَهما فى الأزهر وسْط حرب شعواء انتصر فيها منهج السكاكى ثانية، حتى أنشئت الجامعة الأهلية، فانبلج الصبح من جديد، على يد د. طه حسين و د. أحمد ضيف، وأحمد أمين وأمين الخولى ود. شوقى ضيف وغيرهم من الأعلام. فصارت المدرسة السكاكية تاريخًا يتؤرخ للذوق البلاغى فى مرحلة من مراحله، وليست هى البلاغة نفسها.

رابعًا: رأى شوقى ضيف فى بلاغة الأمس وبلاغة اليوم:

بعد هذه الدراسة المستفيضة الشائقة، يختتم العالم العَلَم الدكتور شوقى ضيف جولته بتشخيص الداء واقتراح الدواء. داء بلاغتنا بالأمس، ودواء بلاغة اليوم.

فالداء: **أن أسلافنا قد صَبُّوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة**: وذلك يرجع من بعض الوجوه، إلى أنهم قصدوا بقواعدهم تعليل بلاغة العبارة القرآنية، كما يرجع إلى طبيعة الشعر القديم، إذ كان فى جملته وجدانيا غنائيا، ولو أن شعراءنا نظموا فى أساليب جديدة كأسلوب الشعر القصصى أو المسرحى، أو لو أنهم نَوَّعُوا فى شعرهم الوجدانى، لتعددت الصور، واختلفت الأكال الفنية، ولَلَحِقت بها الدراسات البلاغية، وللاحقتها فى سباق التط.

ونفس هذه الملاحظة تنسحب على فن النثر الذى كاد ينحصر فى الرسائل الديوانية، القائمة على الجملة المسجوعة، كما قامت القصيدة على البيت المفرد، وأشعر الشعراء الذى قاله.

ونحن فى عصرنا نختلف عنهم من هذه الوجهة، فقد استحدثنا فى مجال الشعر أساليبَ وفنونًا شتى، كما استحدثنا فى مجال النثر المقالة والقصة والأقصوصة والمسرحية، حتى الخطابة نفذنا فيها إلى نمط جديد وهو الخطابة القضائية..

والدواء: **أن تلاحق دراساتنا البلاغية نهضتنا الأدبية**: بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها المتنوعة، وبحيث تكون صورة لحياتنا الأدبية الحديثة.

وبلاغتنا القديمة من مقومات شخصيتنا، فعلينا أن نأخذ بتلابيبها على أن نُصَفِّيَها مما لحق بها من أدران الفلسفة والمنطق والكلام والنحو.

وهكذا، «نأخذ من القديم أصولَنَا، ومن الحديث حياتَنَا، فتتطور بلاغتُنَا، وتصير صورةً لنا». (ص ٣٧٦ - ص ٣٧٨).

هذا هو كتاب «البلاغة تطور وتاريخ»، قد وقعت عليه عيون الملايين من القراء منذ عام ١٩٦٥م، وستقع عليه عيون ملايين أخرى، وسيتعلم منه الكثيرون والكثيرون، ويؤيدونه أو يناقشونه، وقد يختلفون معه، وأنا منهم، ولكنَّنَا جميعًا لا نختلف: في أن هذا الكتاب مَعْلَمٌ من معالم الدرس البلاغي، لعلم من أعلام عصرنا الحديث هو الأستاذ الدكتور شوقي ضيف.

د. منير سلطان
أستاذ النقد والبلاغة المساعد
كلية البنات - جامعة عين شمس